نبويات شعراء العربية لشبه القارة في العصر الحديث

تحليل موضوعي

بقلم الدكتور عبد الكبير محسن *

إن بقاع شبه القارة باكستان والهند وبنجلاديش، عمرت وما زالت بكل فرع من العلوم الإسلامية والفنون العربية حيث انتبه إليها أبناءها فأكبوا عليها وأحاطوا به إحاطة شاملة، وساهموا في نشرها وتنقيحها وشرح غموضها وتفصيل موجزها وتلخيص مطولها فلم يتركوا شعبا إلا وخاضوه ولا عقبة إلا واقتحموها، ولو ألقينا نظرة عابرة على فهارس ما جادت به أقلامهم وسمحت به قرائحهم يتجلى لنا فضلهم وعلو كعبهم في تلك العلوم والفنون، وإن كان معظم أعمالها ما زالت وراء الحجاب منتظرة من يكشفه عنها ويتناولها دراسة وتنقيدا وتقييما وخاصة ما يتعلق بمجالي النثر الفني والشعر العربي، ولهم فيهما نشاطات تستحق الذكر والتناول العلمي، وإن كانت العنقاء قد طارت بكثير من جهودهم النثرية والشعرية خلال فترات الاضطراب والفوضى، فضاعت أكثر هذه الجهود ولم يعرف خبرها، والسبب الثاني لاختفاء إنتاجهم الأدبي عدم اهتمام أصحابه بنشره واطلاع الناس

* أستاذ الأدب العربي المشارك في كلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية العالمية اسلام آباد.

عليه، لأنهم لم يجدوا أسبابا لنشره وكان هدف أكثرهم المتعة الذاتية، بما ينتج أدبا، فكم من جوهر بقي في صدفه ولم يستخرج وكم من لؤلؤة تمرغت في التراب، وكم من معدن اختفى ولم يعثر عليه أحد[1].

فكل ما يسر لنا من تحصيل قصائدهم في المدح النبوي، أكبنا عليها وحللناها تحليلا موضوعيا، فوجدناها تتناول أكثر أطراف السيرة النبوية العطرة فهذا ما عنى به هذا المقال.

أما بالنسبة للمنابع التي وردوا عليها واستقوا منها ورووا بها هذه المدائح فهي مصادر سيرة النبي ﷺ، ولا سيما القرآن والسنة وكتب السيرة النبوية.

يحظى هؤلاء الشعراء بحظ كبير من العلوم الدينية وأكثرهم اشتهر بالحذاقة فيها واشتغل بتدريسها من شب إلى دب فكانت لمهاراتهم هذه انعكاسات في مدائحهم النبوية، ويتجلى هذا الأمر كل التجلي حين نطلع على أمثلة من شعرهم تأخذ مضمونها من القرآن والحديث وثمة منبع ثالث استمدوا منه وذلك خيالهم الرفيع المزود بحب النبي ﷺ، والشعور بعظمته وجلالة رتبته لكن لم يجعلهم هذا الحب يطرون الرسول ﷺ، كما أطرت النصارى المسيح بن مريم عليه السلام، فلم ينحرفوا عن جادة الاعتدال في الأغلب الأعم، وإنما قيدوا خيالهم بقيود الكتاب والسنة، ولا نجد مدحهم يخبط خبط عشواء

---

[1] - الحمد لله على أنه وفق البعض للقيام بهذه المهمة النبيلة وطالما انتظرتهم أمثال عبد الحي الحسيني في نزاهة الخواطر، والدكتور زبير أحمد في رسالة الدكتوراه والباحثين في العديد من الجامعات في رسائلهم لمرحلتي الماجستير والدكتوراه.

فركزوا على إبراز صفات ومحاسن الممدوح الكريم، التي وجد لها أثر في المصادر النبوية ونحن راعيناها في سرد النماذج ترتيبا زمنيا لحياة الممدوح ﷺ، فنبدأ بذكر مولده المبارك والأحوال التي كان فيها هذا المولد.

الموضوع الأول

مولد الرسول وبيان الأحوال التي تسبق بعثته وما جرى من تغيرات في المجتمع أثر النبوة

إن الله تعالى اصطفى سلالة كريمة لبعثة الرسول الخاتم ألا وهي سلالة هاشم التي تشهد بمجدها الأقارب والأباعد، وقد أقر بذلك كفار مكة حين سألهم الرسول بعد فتح مكة ما تظنون بى إنى فاعل بكم، فقالوا كريم وابن كريم، فيقول أحد الشعراء[1]:

سلالة عبد الله من آل هاشم يتيما وقد رباه حجر حليمة

تناثرت الأبيات في قصائد مختلف الشعراء ملقية الضوء على أحوال الناس السيئة وما أصابهم من غي وضلال، وما اتصفوا من عادات قبيحة وأخلاق رذيلة، قال بعض الشعراء:

لقد جاء الناس في قعر ظلمة ضلال وإشراك وفي كل باطل[2].

---

[1] – وهو عبد المنان الدهلوي، اقرأ القصيدة في مجلة الرشيد العدد الخاص بالمدائح النبوية بثلاث لغات العربية والأردية والفارسية، صدرت بلاهور باكستان سنة ١٤١١هـ ، صفحة ١٥٩.

[2] – البيت لعزيز الحق من شعراء بنجلاديش وعلمائها المعاصرين، أنظر مقدمات ارشادية ومناقب عنائيتة لمقصود أحمد عمري صفحة ٤٨٤.

وفي بائية الشاه ولي الله المعروفة بـــ"أطيب النغم في مدح سيد العرب والعجم[1]" أبيات عديدة تصف المجتمع، وإليكم بعضها:

أتانا مقيم الدين من بعد فترة وتحريف أديان وطول مشاغب
فيا ويل قوم يشركون بربهم فيهم صنوف من وخيم المثالب
ويا ويل قوم حرفوا دين ربهم وافتوا بمصنوع لحفظ المناصب

إلى أن قال:

فأدركهم في ذاك رحمة ربنا وقد أوجبوا منه أشد المعائب
فأرسل من عليا قريش نبيه ولم يك فيما قد بلوه بكاذب

وفي نفس الموضوع قصيدة للشيخ عبد الرحمن كميبل بوري ١٩٥٣م، وقد فصل بذكر التقلب الجذري الذي حدث بسبب نبوة رسولنا ﷺ، إقرأها في مجلة الرشيد صفحة ٣٥٧.

إلى غيرها من الأشعار التي تطنب بذكر سيئات المجتمع العربي، وقتذاك وفي تلك الأحوال أشرقت الأرض بنور ربها بظهور الرسول ﷺ، وللشاعر البروفيسور محمد حسين إقبال [2]"قصيدة بعنوان مولد النبي ﷺ، يقول في مطلعها:

في بيت آمنة المبارك أشرقت شمس الضحى فأضاء كل مكان

---

[1]-طبعت هذه القصيدة مع الشرح، كما أن صاحب نزهة الخواطر سردها بكاملها انظر نزهة الخواطر ٤١٢/٦.

[2]- أنظر القول السديد مجلة علمية وأدبية لشهر أكتوبر سنة١٩٩٢م صفحة ٧٧ من لاهور – باكستان.

ولكن سرعان ما تقلبت الأيام وتبدلت هذه السيئات بالحسنات والرذائل بالفضائل ببركة الرسول وجهده المبارك، وعن هذا التغير تحدث المفتي جميل أحمد التهانوي في إحدى مدائحه قائلا:

ذو الكيماء بنظرة إذ فاسق هو مقتدى لما أتاه لقاء

قوم لهم ظلم وقهر قبله أمسوا لكل إنهم إخاء

قوم على الأقوام منهم غارة فكأنهم آباء أو أبناء[1]

[1] - أنظر مجلة الرشيد السابق ذكره صفحة ١٣٨.

الموضوع الثاني

إعلان النبوة والقيام بمهمة التبليغ

لما نزل قوله تعالى بعد أن جعل محمدا نبيا ﷺ، ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ [1]، فشمر عن ساقيه وشد مئزره استجابة لهذا الأمر وقياما بالرسالة التي فوضت إليه أمضى كل عمره، في هذا السبيل، هذا الموضوع واسع النطاق وقد نال قسطا كبيرا من نبويات القوم حيث تحدثوا عن نشاطاته بهذا الصدد ووصفوه داعيا إلى الحق ومبشرا للناس بنعم النعيم والفردوس ومنذرا من العذاب الأليم، يقول عزيز الحق من علماء وشعراء دهاكة بنجلاديش حاليا شيخ الحديث في إحدى مدارسها:

رسولا إلى الناس جميعا وكافة نبيا أتانا بالكتاب المنزل
هدانا إلى الخير وجنة ربنا أتانا من الله بدين معدل
وداع إلى الخير بوعظ و حكمة وهاد إلى الله بقول مدلل
فصار يجول في المجامع تارة وطورا يدور في بطون القبائل
ويعرض دين الله في كل محضر ويدعو عباد الله في كل محفل [2]

وللشاه ولي الله الدهلوي أبيات في نفس الموضوع في بائيته:

---

[1] – سورة المائدة آية ٦٧.

[2] – مقصود أحمد عمري المرجع السابق.

وكانت للرسول ﷺ، جولة لمهمة التبليغ إلى الطائف ليدعو أهلها إلى الإسلام وإلى هذا تشير الأبيات التالية:

أتى طائفا يدعو إلى دين ربه ويرجو لأهليها لعون مؤمل

ولكن أتوه بالجفاء وغدره وجور وإيلام وجرح مقتل [1]

وقد نال هذا الموضوع نعيبا وافرا من شعر هؤلاء القوم.

[1]- الأبيات لعزيز الحق.

الموضوع الثالث

صفات خلقية وخلقية، كان الرسول متصفا بها

ما يتعلق بهذا الجانب من سيرة الرسول ﷺ، فقد أطنب الشعراء بذكر صفاته الكريمة وتناولوها مفصلا فيرى المطالع في هذه المدائح أنها تنهمر في ذكر جماله الظاهر والباطن، والجدير بالذكر أن شعراءنا بصدد وصف جمال الرسول يتبعون لما ورد في القرآن الكريم والسنة ويتناولون تلك المظاهر الكونية التي وقع بها تشبيه الرسول منها: "سراج في قوله تعالى ﴿سراجا منيرا﴾ [1]قال الشاعر:

سراج منير كشمس الضحى وخير البرايا ونور قديم [2]

كما أنهم يشبهونه بالقمر وبالبدر وبطلوع الفجر، كما يقول:

ووجهه كطلوع الصبح متفلقا فالأرض نائرة والقاع والقلل [3]

قرض العلامة محمد يوسف البنورى قصيدة تشمل ٧٣ بيتا ذكر فيها الكثير من شمائل النبي ﷺ، ووصف أعضائه الظاهرة كقوله: ومعظم هذه الشمائل اقتبسها مما رواه الترمذي في شمائله.

---

[1]- من قوله تعالى﴿وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا﴾ سورة الأحزاب آية ٤٦.

[2]- من قصيدة ا لشيخ محمد إدريس الكاندهلوي عد فيها أسماء النبي ﷺ مقتبسا من كتب الحديث اقرأها في مقدمة حواشية على مقامات الحريري صفحة ٣.

[3]- من قصيدة عبد المنان الدهلوي مجلة الرشيد صفحة ٢٥١.

هو أدعج كحل العيون وأبلج أقنى ازج وأهدب اشفارا
طلق الحبين إذا تبسم ضاحكا فاقت أسارير الجمال نضارا[1]

وفي ذكر صفات النبي ﷺ، التي نطق بها القرآن والسنة قصيدة قرضها العلامة أنور شاه الكشميري يقول في مطلعها:

شفيع مطاع نبي كريم قسيم جسيم بسيم وسيم

أما الصفات الخلقية والمعنوية فقد ذكر القرآن والحديث تفصيل هذه الصفات التي فطر الله نبيه عليها فاقتبسها هؤلاء الشعراء وزينوا بها شعرهم وخرطوها في سلك نظمهم فبدت هذه المادة العشرية المتوفرة لدينا تحتوى على مغزي هذه الروايات وخلاصتها ومما اهتموا بها اهتماما خاصا صفات الجود والفصاحة والشجاعة والخلق ولبعضهم في موضوع الشمائل النبوية والصفات المعنوية قصائد مستقلة، منها قصيدة العلامة أنور شاه الكشميري وهي تشتمل على ٧٨ بيتا ومطلعها:

أجابت دموعي إذ دعوت تحيرا وجارت عيوني بالعيون تغززا[2]

ومنها قصيدة الشيخ محمد إدريس الكاندهلوي وكل بيت منها يجمع في طيه صفات ذكر لرسولنا في القرآن والسنة لكم نبذة منها:

---

[1]- أنظر مجلة "البينات" الصادرة في شهر يناير – فبراير ١٩٧٨م صفحة ٢١١.

[2]- اقرأ هذه القصيدة في آخر شرحه فيض الباري على صحيح البخاري.

بشير نذير ومدثر رسول مبين رشيد حليم
وطه ويس ومزمل نجى الإله بصوت وخيم

إلى أن قال:

هو الأحسن الأجود الأشج أغر الجبين جميل وسيم
هو الأبيض الأبلج الأدعج جليل المشاش مليح قسيم
بشارة عيسى ووعظ الكليم دعاء إبراهيم عند الحطيم [1]

وعلى نفس المنوال نظم عبد العزيز خالد من الشعراء المعاصرين قصيدة بالأسلوب الحر ومما يزين هذه القصيدة أنه استعمل سبعا وستين صيغة من صيغ المبالغة في وصف كمال صفاته الظاهرة والباطنة وإليكم بعض الأسطر الشعرية:

هو أحسن الناس صوتا وخيرا وحالا ووجها:

هو أمكن الناس مجدا.

هو أهنأ الناس طبعا.

هو أبين الأنبياء هو أخطب الأنبياء خطابا هو أشرف الأنبياء نصابا.

طليق الملامح كثير الطلاوة كريم المناسب رفيع الجوانب.

من الله نورا وسراجا منيرا [2].

---

[1] - أنظرها في مقدمة حاشيته على المقامات الحريرية.

[2] - مجلة الرشيد صفحة ٣٩٥.

وفي نفس المجال قصيدة الشيخ محمد موسى بازي الروحاني وقد جمع فيها أكثر من خمس مائة اسما صفاتيا للممدوح الكريم، وهذا يدل على سعة اطلاعه على المراجع الإسلامية وقدرة بيانه، وتتكون القصيدة من مائة وتسع وستين بيتا يقول في مطلعها:

حمدت الله رب العالمينا على النعماء حمد المخلصينا[1]

[1]-المرجع السابق صفحة ٣٦٠.

الموضوع الرابع المعجزات

عثرنا بالنسبة لهذا الموضوع على إنتاج غزير من شعر هؤلاء الشعراء وقد تقدم أحدهم وفصل بذكر معجزات رسولنا ﷺ، وله بهذا الخصوص قصيدتان مستقلتان في بيان المعجزات تعرف إحداهما بـــ"لامية المعجزات"عدد أبياتها ٣٨٥ بيتا ذكر فيها مائة معجزة للرسول ﷺ، والثانية هي "بائية المعجزت" وتحتوى على ١٩٨ بيتا، أما الشاعر فهو الشيخ حبيب الرحمن العثماني من مشهوري علماء شبه القارة ومدير دار العلوم ديوبند في زمانه يقول في البائية:

جمعت في النظم من إعجازه مائة أخرى على ما تراها صفوة نخبا
جواهر نضدت در منظمة على نفيس يريك الدر مختلبا[1]

ولكم بيتان من لاميته في ذكر معجزة القرآن:

أظهر الآيات من نشأ الهدى فاستقام الميل وانسد الجلل
هاك قرآنا مبينا فاستمع لم يزل إعجازه منذ نزل[2]

هذا ما يتعلق بالقصائد المستقلة بذكر معجزات الرسول ﷺ، أما الشعراء الآخرون فتناثر ذكر المعجزات في قصائدهم المدحية ففي قصيدة الشيخ عزيز الحق اثنا عشر بيتا في هذا البيان، ومما ذكر من المعجزات إتيان الشجرة إلى حضرة الرسول والسجدة له، وإظلال الغمام عليه، وحنين جذع النخلة الذي كان يتكئ إليه حينما يخطب،

---

[1]- مجلة ثقافة الهند دهلي المجلد ٣٧، العدد ١- ٢ صفحة ٢٤.
[2]- أيضا.

فلما استبدل به المنبر حن وأن، وقد تناول الشاه ولي الله أيضا هذا الموضوع في بائيته المشهورة، وكذا غلام علي آراد بلجرامي وآخرون نسرد بعض الأمثلة من شعرهم: المعجزات اتيان الشجرة إلى حضرة الرسول والسجدة له، وإظلال الغمام عليه، وحنين جذع النخلة الذي كان يتكئ إليه حينما يخطب، فلما استبدل به المنبر حن وأن، وقد تناول الشاه ولي الله أيضا هذا الموضوع في بائيته المشهورة، وكذا غلام علي آراد بلجرامي وآخرون نسرد بعض الأمثلة من شعرهم:
قال آزاد في معجزة شق القمر:

وشق بدر الدجى إيماء اصبعه نعم واصبعه مفتاح أفعال[1]

وقال الشاه ولي الله في حنين الجذع إليه:

وحن له الجذع القديم تحزنا فإن فراق الحب أدقى المصائب[2]

لقد منح الله رسوله قدرة البصر من وراء رأسه أيضا كمعجزة له فيقول أحدهم:

كما كان يرى قدام عين نبي الله ينظر من قفاء [3]

نكتفي بهذه النماذج علما أن هذا الموضوع وجد ذكرا مفصلا في شعرهم.

---

[1]- أنظر ديوانه ٣٤/١.

[2]- عبدا لحي، نزهة الخواطر ٤١٣/٦، ورواية حنين لجذاع في مسند الإمام أحمد ١٠٩/٢.

[3]- مجلة الرشيد صفحة ٢٨٦.

الموضوع الخامس

المعراج

لفت حديث المعراج أنظار هؤلاء الشعراء فتناولوه مفصلا متحدثين عن مختلف جوانبه ومراحله التي مر بها الرسول ﷺ ليلة عرج به، اطلعنا على ثلاث قصائد تستقل بذكر المعراج.

أولاها: قصيدة الشيخ رفيع الدين الدهلوي[1] ومما ذكر من أحداث المعراج:

١- تفرده في الاستواء على البراق وتجاوزه عن الأفلاك.

٢- مرافقته جبريل عليه السلام له حيث كان آخذا بركاب البراق.

٣- إمامته للأنبياء في القدس.

٤- لقاءه بعض الأنبياء.

٥- توقف جبريل الأمين عند سدرة المنتهى بحجة أن التجاوز عن هذا الحد لا يليق به، ولكم مطلع هذه القصيدة.

يا أحمد المختار يا زين الوري يا خاتما للرسل ما أعلاكا

ثانيتها: هي لامية المعراج للشيخ محمد إدريس الكاندهلوي وتقع في ١٢٦ بيتا يقول في ابتدائها[2].

---

[1]- أيضا صفحة ١٢٨.

[2]- اقرأها في نزهة الخواطر ١٨٤/٧.

إلا ليت شعري هل يقولن مقولي قصيدا بإسراء النبي المبجل
فسبحان من أسرى بليل بعبده إلى المسجد الأقصى إلى عرشه العلي

إن الأمة اختلفت في وقعة المعراج، هل كان بالجسد يقظة أو بالرؤية، وكذا وقع الاختلاف في رؤيته للرب، فرأى الجمهور أنه كان في حالة اليقظة، وكذا يرون اثبات الرؤية، فالشيخ يوافقهم حيث يقول:

رآه رآه دون شك وريبة وما زاغت العينان عن نوره الجلي
وآه بعينى رأسه وفؤاده رواه ابن عباس صحيح مسلسل

وله استنباط بديع من حادث المعراج على ختم نبوته كما يقول:

وفي ذلك إيماء لختم النبوة وهذا لأن العرش آخر منزل

ومن ضمن ما ذكره الشاعر من أحداث المعراج سرعة سير البراق.

- تمطى براقا خطوه مد طرفه.
- إمامته الأنبياء، فأنت إمام الأنبياء وخطيبهم.
- اطلاعه على المغيبات:

رأى الآية الكبرى وما شاء ربه رأى جنة المأوى وما لم يخيل

دنوه من ذات الباري:

دنى فتدنى قاب قوسين أو أدنى وأكرم بالإيحاء سبحان مفصل

تكليم البارى تعالى إياه:

وكلمه المولى ولم يك حاجب ربه

أما ثالثتها: فمن قرض العلامة محمد أنور شاه الكشميري[1]، تحدث أيضا عن أهم وقائع المعراج بأسلوب علمي، وهو من العلماء الأجلة، مستندا إلى مرويات الصحابة وقد دعم موقف من يرى إثبات رؤية الرب له أثناء المعراج، أما قوله ﷺ: "نور أني أراه" فيؤله قائلا:

رواه أبو ذر بأن قد رأيته وأنى أراه ليس للنفي بل ثنيا

ومنه قوله:

بحثنا مآل البحث إثبات رؤية لحضرته ﷺ، كما يرضى

كما اختاره الحبر ابن عم نبينا وأحمد من بين الأئمة قد قوى

وممن تحدثوا شعرا عن وقعة المعراج، الشيخ ظفر أحمد التهانوي[2]، والنواب صديق الحسن خان القنوجي[3]، وآخرون ونخلص بذا إلى الموضوع القادم وهو:

---

[1]- اقرأ القصيدة في تذكرة مولانا إدريس لابنه محمد ميان صديقي صفحة ٢٣١.

[2]- أنظر القصيدة في فيض الباري صفحة ٢١١، وكذا مجلة الرشيد صفحة ٣٩٠.

[3]- الرشيد صفحة ٢٠٤.

الموضوع السادس

الغزاوات

نجد في المادة الشعرية التي فزنا بالعثور عليها من إنتاج شعراء شبه القارة ذكر أهم الغزوات التي شارك فيها رسولنا ﷺ، من بدر وأحد والأحزاب وحنين وتبوك.

فهاهنا الشيخ حبيب الرحمن العثماني يصف غزوة بدر مشيرا إلى بعض الأحداث والآيات التي أظهرها الله للمسلمين، فمنها ما جاء ذكره في القرآن مثل النعاس الذي غشى المجاهدين في ابتداء المعركة آمنة من ربهم، فقال الشاعر:

ويوم بدر نعاس الأمن أدركهم مال الرؤوس به فاستيقنوا الغلبا [1]

كان المسلمون في تذبذب من لقاء جيش مكة لعدم استعدادهم لذلك لأنهم كانوا خرجوا لتتبع قافلة قريش التجارية ولكنها فاتتهم وساقهم القدر إلى بدر، حيث جيش المشركين المكون من ألف مقاتل في انتظارهم، وعددهم ٣١٣ فقط، فقلل الله المشركين في أعينهم حتى لا يتراجعوا فيقول الشاعر:

وإذ يقلل جميع المشركين به في عينهم ليظنوا الفتح مقتربا

وله كذلك في نزول الملائكة مددا وسكينة للمسلمين:

وأنزل الله جندا من ملائكة مسومين يحزون الطلي نوبا

---

[1]-انظر قصيدته في مآثر صديقي في ترجمته لابنه ٢/٢٨.

ومن الشعراء المتحدثين عن الغزوات، نجم الدين كجراتي [1]، وظفر أحمد التهانوي وهو يذكر الغزوات في حين وصفه رجالا حول الرسول:

فسل عنهم بدرا، حنينا وخندقا وسل أحدا عنهم وأطلال خيرا[2]

وكذا ضياء الدين مدراسي واصفا يوم أحزاب:

وأعطى عليا ذا الفقار بخندق فطاف بأحزاب طغت وهو الفرد[3]

كان المسلمون في ضيق أثناء معركة الأحزاب، محاصرين من كل جانب، فارسل الله ريحا مزقت جموع المشركين وصرفتهم من الموقع فيقول أحدهم:

وأرسل رب الناس ريحا شديدة عليهم وشر البرد والليل مسود
ففروا فرادى غانمين نفوسهم كأنهم ما كان بينهم عهد

ومنهم الشاه ولي الله، ومن ضمن ما ذكر من الغزوات معركة تبوك، حيث يقول:

فأوفاه وعد الرعب والنصر عاجلا وأعطى له فتح التبوك ومآرب[4]

وفي الحنين يقول بعضهم:

يوم الحنين إذا ما غر كثرتهم فلم تفدهم وولت تتبع العقبا[5]

---

[1]- مجلة ثقافة الهند السابق ذكره ثقافة.
[2]- الرشيد صفحة ٢٩٠.
[3]- أيضا صفحة ٢٠١.
[4]- أيضا صفحة ١٩٢.
[5]- من قصيدة ضياء الدين مدراسي مجلة الرشيد ١٩٢.

الموضوع السابع

وهو بيان البؤس الذاتي والاجتماعي في ثوب المدح النبوي وذكر ما يسعى الرسول ﷺ، لكشف الغمة عن الأمة في شدائد يوم الحشر.

كانت مناطق شبه القارة قد وقعت في شبكة الاستعمار الإنجليزي وبذلك قست الظروف للمسلمين، وأكل عليهم الدهر وشرب إذ هم الذين نهبت حكومتهم وسلبت شوكتهم فتبدل بهم الزمن وساءت بهم الحياة، ولم يبق لهم من العيش إلا مره، فنرى لدى هؤلاء الشعراء -إذ أن أكثرهم ذاق هذه المرارة- انعكاس هذه المأساة الاجتماعية والذاتية على مدائحهم النبوية ونجدهم يجلئون إلى ذات الرسول ﷺ ويتذكرون تلك المواقف التي يكون له فيها دور فعال لإغاثة المقهورين ونجاة المكروبين، وكان الهدف وراء تذكر هذه المواقف التسلي والتسلية وقت هذه الشدائد وتقوية علاقة المسلمين بالرسول والدين، ولفت أنظارهم إلى أن صلتهم إذا توثقت برسولهم يسهل عليهم تحمل المشاق وتهون عليهم أحزانهم فنجد هذا الملمح باديا في المدائح التي فرضت أيام الاستعمار، فها هو الشاه ولي الله الدهلوي وكان زمن ظهرت فيه باكورات هذه المأساة الكبرى، وقد لاحظ الشاعر شمل المسلمين قد تشتت وجمعهم قد تفرق فقام بدور موقظ ومصلح ومسل، ولذا استهل مديحه المشهور بائيته بالبيت التالي:

كأن نجوما أومضت في الغياهب عيون الأفاعي أو رؤوس العقاب

فيشير به إلى سواء الحالات وعموم الفوضى وفساد الأرض وضيقها للمسلمين، ونجده بعد الاستهلال بهذا البيت يتحدث في أبيات عديدة عن المأساة التي عمت بلاد شبه القارة، وشملت كل طبقات المجتمع الهندي فيجد في ذكر الرسول ﷺ وتذكر مواقفه التي ينفع الأمم فيها وجوده وخاصة موقفه، في كربات يوم الحشر، إذ الناس حيارى يطلبون من يشفع لهم عند ربهم فيذهبون إلى:

إذا ما أتوا نوحا وموسى وآدما وقد هالهم إبصار تلك الصعائب
فما كان يغنى عنهن عند هذه بنى ولم يظفرهم بالمأرب
هناك رسول الله ينجو لربه شفيعا وفتاحا لباب المواهب[1]

ونفس هذه المعاملة نلمحها في مدائح الشاه رفيع الدين ابن الشاه ولي الله الدهلوي إذ يتسلى في بؤسه الذاتي والاجتماعي بذكر شفاعة رسولنا الكبرى، آملا في خير مستقبله، وكذا صنوه الشاه عبد العزيز وهو يضع بيان البؤس الاجتماعى في التشبيب الذي تعود الشعراء على استهلال القصائد الشعرية به، وبعد أن ذكر جور الأحبة وقسوتهم يلجا إلى:

وإن جرتم على فلي غياث بباب المصطفى خير الأنام
إليه توجهي وله استنادي وفيه مطامعى وبه اعتصامي

[1]- نزهة الخواطر ٤١٣/٦.
[2]- البيت لحبيب الرحمن العثماني مجلة ثقافة الهند صفحة ٢٥.

وهذا اللجوء وتلك الاستغاثة نجدها في مديح الشيخ إعزاز علي في الأبيات التالية:

رسول الله جئتك مستعيذا عليك صلاة ربي وسلام
كئيبا مستغيثا مستعينا علي نفس تضيم ولا تضام
غريب جاء من أرض غريب وليس له رفاق أو ندام
ومسته البلايا والرزايا يقلبه البساط ولا يتام[1]

ومن الذين تسلوا في هذه المأساة الكبرى بالمدائح النبوية وخففوا بها شدة آلامهم محاولين تناسى قسوة الزمان، وجفوة الأيام، فضل حق خير آبادي وقد عاش قبل ثورة أهل الهند ضد الاستعمار سنة ١٨٥٧م في رغد من العيش ولما ثارت الهند ساهم الشاعر فيها وأصبح من قادة الثائرين، وقد بلغ من العمر شيبته فكتب الله له الابتلاء بمنحة عظيمة بعد فشل الثورة، وصبت عليه مصائب من كل جانب وتبدلت سعادته بالشقاء،حيث نفاه الإنجليز إلى جزر الأندمان فقضى هناك باقي عمره، ولحق بربه، قرض عدة قصائد شعرية حفظتها الأيام عبر فيها عن هذا البؤس والشقاء الذي أصبح هو وقومه عرضة له منها قصيدته المشهورة وتقع ف ثلاث وثلاثين ومائتين بيتا يقول في مطلعها:

ما ناح أورق في أوراق أشجان إلا وهيج أشجاني وأشجاني[2]

---

[1] – من بائيته المشهورة.
[2] – نزهة الخواطر ٢٧٦/٧.

ثم يصف ما جرى أثناء الثورة وما حل بالقائمين بها، ويفصل ذكر أسباب فشلها كما يذكر مختلف أحداثها وأخيرا يتقوى ويتسلى وهو في المنفى، بذكر الرسول ﷺ، على النمط المعروف المسلوك في المدائح النبوية التي قرضت أيام الاستعمار وحذا حذوه عزيز الحق "محدث دهاكا" فله قصيدة دالية سماها "الالتجاء والحنين مع الصلاة والسلام على سيد المرسلين" [1].

كل هؤلاء يشتركون في ذكر الشفاعة الكبرى لسيدنا رسول الله يوم الحشر جاعلين هذا الذكر رمز النجاة والتخلص من الكربات وتسلية الأفئدة، وحاولوا بذلك أن يتناسوا الأيام القاسية وأن يقووا صلة المسلمين برسولهم.

والجدير بالملاحظة في هذا الباب أن أكثر الذين سمحت قرائحهم بقرض النبويات، تشاركوا في استخدام جملة "خذ بيدي" مخاطبين الرسول فمثلا إعزاز الدين على الديوبندي بعد أن عبر عن هذا القلق السائد:

رسول الله خذ بيدي فإنني جريح لا لجرحته التئام[2]

وقال آخر:

غرقت ببحر الذنب ما لي عصمة فخذ بيدي أنت الكريم فخذ بيدي[3]

---

[1] – اقرأ القصيدة في الرشيد صفحة ٢٩٠.

[2] – راجع ا لعلامة فضل حق خير آبادي، رسالة الدكتوراه للدكتور قمر النساء صفحة ٢٣٤.

[3] – مقصود أحمد عمري المرجع السابق ٤٨٨.

وقال الشاعر:

فخذ بيدي آمن على نفس الردي وأسلم من الشر الشمر وأرشد [1]

وقال الشيخ أشرف على التهانوي:

يا شفيع العباد خذ بيدي أنت في الاضطرار معتمدى [2]

فرأيناهم يلجئون إلى هذا المعتمد الذي غطت رحمته العالمين، وقد كان أصحابه يأوون إليه في شدائد الدنيا، حيث يقول سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه في حديث روى عنه "كنا إذا احمر البأس نتقى برسول الله ﷺ [3].

ودائما اتقى بذكره ومدحه الشعراء المسلمون أيام الضعف والوهن وينادونه باسمه تخففا من أحزانهم وآلامهم، كما قال الشيخ سعدي "من أشهر شعراء الفارسية" زمن هجومات التتر.

يا محمد كر قيامت را برآرى سر زخاك سر برآري اين قيامت درميان خلق بين

أما في الهند فيقول أحد الشعراء:

---

[1] – مجلة ثقافة الهند صفحة ٢٩.

[2] – لعزيز الحق.

[3] – هو لفيض الحسن أديب الرشيد صفحة ١٥٨.

فمدحك رقيتى وشفاء رائى إذا ما خضت في لجج السقام [1]

ونطوى هذا الموضوع بذكر آخر مثال شعري سلك به صاحبه هذا النمط ونقف عنده بعض الوقت، وهو الشاه رفيع الدين الدهلوي وقد كثر لديه ذكر مواقف الرسول ﷺ، التي يسعى فيها لإغاثة المكروبين نظرا إلى زيادة امتداد الظلام وشدة الكرب، وتوالى المحن لأن في زمنه اتسع نفور الاستعمار الإنجليزي واشتدت كذلك فرقة المسلمين فنجد في مدائحه فكرة الاستغاثة بذات الرسول ﷺ، ومناداته بأقوى صورة ليسهل عليه وعلى قومه تحمل الشدائد فنحلل في هذا المقام قصيدته التي نظمها في وقعه المعراج [2]، فمنذ بدايتها ينادي الرسول ﷺ، قائلا:

يا أحمد المختار يا زين الورى يا خاتما للرسل ما أعلاكا

ثم يقول في البيت التالي له:

يا كاشف الضراء من مستنجد يا منجيا في الحشر من والاكا

وبعد ذلك يشرع في ذكر مراحل المعراج المختلفة التي مر بها الرسول ﷺ، فما مناسبة هذا البيت لما بعده، هذا ما يقوله الشارحون لما يشرحون وقعة المعراج في آخر حياة الرسول بمكة، وقد تضيق فيها وقاست الحياة بها وبدأ غضب الكفار يشتد نظرا إلى وفاة عمه أبي طالب، وقد كان له جنة فيما غبر من الزمن، وكذا توفيت زوجته

---

[1] – أنظر مهر منير لفيض أحمد فيض صفحة ٣٦٣.

[2] – روى هذا الحديث الامام احمد في مسنده.

خديجة رضي الله عنها التي كانت تؤانسه وتخفف من حزنه فكبر قلقه بفقدهما واجترأ عليه المشركون بما لم يطيقوا من قبل فقربه ربه إليه حتى كان قاب قوسين أو أدنى، وشرفه بمنحه فرصة رؤيته، حتى يتأنس ويتأسى ويزدد يقينا بأن الله لن يضيعه وهاهنا الشاه رفيع الدين يذكر مأساة قومه في الهند في قصيدته التي موضوعها وقعة المعراج ويفصل بذكر الأحداث المختلفة التي وقعت في أثناء المعراج حتى يعلم مسلمي الهند بأن هذه المصائب طارئة وعليهم التأسي بما تأسى به رسولهم، والتقرب إلى الله الذي يداول الأيام بين الناس، ولو أنهم صبروا سرعان ما تنكشف هذه الغمة، فخلاصة الكلام أن شعراء شبه القارة جعلوا مدائحهم النبوية تعبيرا عن رجائهم في نيل الشفاعة الكبرى كرمز النجاة من الشدائد ووسيلة للتقرب إلى دين ربهم ونبيه وأمل التخلص من الكربات التي لحقتهم بتقلب الأيام.

الموضوع الثامن

هو ختم النبوة

الاهتمام الذي يوليه شعراء الهند وباكستان بهذا الموضوع ليس له نظير قديما وحديثا في أخرى بلاد العالم الإسلامي، وذلك بسبب ظهور المتنبئ الكاذب وتكون جمعية قوية بإغراء الاستعمار الإنجليزي وقد خدموه بإصدار فتاوى في حقه وكان هذا الرجل[1] يتحدى العلماء المسلمين ويباريهم، كما أنه ذات مرة قرض قصيدة شعرية سماها الإعجازية وتحدى شعراء المسلمين أن يأتوا بمثلها فنهض جمع منهم يعارضون هذه القصيدة التي كانت ملآن بالأخطاء اللغوية والعزوضية فظهرت هناك قصائد عديدة في نقض هذه الإعجازية وجعلها هباء منثورا.

ومن ناحية أخرى تصدى الشعراء العربية من أهل شبه القارة كشأنهم علماء وأفاضل العلوم الدينية للرد على معتقدات وأفكار هذا المتنبئ الكذاب وأتباعه، فمن هنا وجد هذا الموضوع اهتماما بارزا منهم ووجد من إنتاجهم الشعري حظا وفيرا ومن الأسماء البارزة في هذا الموضوع اسم الشيخ العلامة أنور شاه الكشميري والشيخ فيض

---

[1] – هو لعبد العزيز الدهلوي نزهة الخواطر ٢٧٦/٧.

الحسن الجهلمي[1]، وأصغر علي روحي[2]، والشيخ غنيمت حسين المونكيري الذي وضع قصيدته معارضة لإعجازية المرزا المتنبىء الكاذب في ستمائة وثلاث وثمانين بيتا[3]، ونحن هنا نكتفي بهذه الإشارة العابرة لكوننا عالجنا هذا الموضوع في مقال مستقل تحت عنوان" جهود علماء شبه القارة الشعرية في مقاومة الفتنة القاديانية".

وهناك سردنا النماذج الشعرية مع تحليلها ودراستها وفي نهاية المطاف نلفت أنظار القراء إلى إسهام وفير نبيل في باب المدح النبوي قام به غلام علي آزاد بلجرامي، وهو أغزر شعراء العربية في شبه القارة إنتاجا وأشدهم إقبالا على المديح النبوي وأوفرهم إنتاجا وقد أنشد بعض هذه المدائح في مجالس الحرمين الشريفين فاستحسنت ولقب بحسان الهند، وعدد ما نظم من المدائح النبوية فوق ثلاثين

---

[1]- راجع لقراءة القصيدة المرجع السابق ١٨٤/٧.

[2]- هو من مواليد ١٨٣٧ وتوفي عام ١٩٠٨بلاهور ودفن بقرية قاديان بالهند، وهي مولده ومنشأه وبها تمركز هو وأتباعه ونسبة إليها تعرف فرقته بالقاديانية، ولم يأل علماء شبه القارة جهدا في مقاومة هذه الفرقة وإبطال دعاوي ومعتقدات المنتمين إليها وأخيرا لقيت هذه الجهود المباركة نجاحا باهرا حيث قبل البرلمان الباكستاني قرارا أضيف إلى الدستور وينص على اعتبارهم كفرة رسميا عام ١٩٧٤م، وهذا الذي كسر شوكتهم وشخص دائهم وأخزاهم أمام الناس بعد أن كانوا يختفون وراء التأويلات لمعتقداتهم السيئة.

[3]-هذه القصيدة بحروف غير منقوطة عرضها الشاعر على المتنبىء ليقراها فعجز عن ذلك، أنظرها في آخر كتاب "محاسبت قاديانيت" لخالد شبير أحمد.

قصيدة وقد حاكى بإعدادها بردة البوصيري وسماها بالقصيدة البديعية لأنه وضع في كل بيت من أبياتها لونا من البلاغة الهندية التي اقتبسها من كتب بلاغة الهنادكة وسماها بأسماء عربية [1].

ونهائيا تجدر الإشارة إلى أن بعض شعراء شبه القارة تفننوا في باب المديح النبوي فجاءوا بقصائد خليطة بين العربية والفارسية أوبين العربية والأردية، وقد بلغ أحدهم [2]، في هذا التفنن أنه نظم قصيدة مدحية بأربع لغات.

فكل مصراع يشتمل على لغتين، يبدأ بالعربية ويكمله بالفارسية، ثم يبدأ المصراع الثاني بالهندية ويكمله بالأردية، ويستمر في هذا الدأب حتى نهاية القصيدة:

وهكذا نرى أن أهل شبه القارة من الشعراء أعطوا اهتماما بالغا لمدح الرسول ﷺ ، بدافع الحب له وفي العرف الأدبي المحلي لا يعتبر الرجل شاعرا إلا إذا مدح الرسول ﷺ، كل هذا دليل على حب الرسول استقر في نفوسهم وتقبل الله منهم هذا الحب.

---

[1] – كان أستاذا بجامعة بنجاب "باكستان" وقد وجه إليه المتنبىء كعادته السبب والشتم في قصائده الشعرية بسبب جهوده في رد دعاويه الباطلة أنظر هذه الأبيات في ديوانه المطبوع في مجلة المجمع العربي الباكستاني سنة ١٩٩٤م، صفحة ٨١–٩٠.

[2] – ألف الشيخ كتابا في عد أخطاء قصيدة المتنبىء الكاذب، الإعجازية نثرا وشعرا، توجد هذه القصيدة في ذلك الكتاب الذي طبع باسم"ابطال إعجاز مرزا" وتوجد له نسخة في مكتبة مجلس ختم النبوة، ملتان"باكستان".

المراجع

١ البينات "مجلة شهرية" بالأردية تصدر عن جامعة العلوم الإسلامية بنوري تاون بكراتشي – باكستان.

٢ تذكرة مولانا إدريس "في ذكر حياة الشيخ محمد إدريس الكاندهلوي"لابنه محمد ميان صديقي المكتبة العثمانية لاهور سنة ١٩٧٧م.

٣ ثقافة الهند مجلة علمية أدبية تصدر فصليا من دهلي"الهند" من المجلس الهندي للعلاقات الثقافية.

٤ حدائق بخشش ديوان الشيخ أحمد رضا خان البريلوي مطبعة كنج شكر لاهور – باكستان.

٥ الرشيد مجلة علمية أدبية وقد أصدرت عددا خاصا بالمدائح النبوية بثلاث لغات في مجلدين سنة ١٤١١هـ من لاهور.

٦ السبعة السيارة ديوان غلام علي آزاد بلجرامي المنقسم إلى سبعة أجزاء مطبعة كنز العلوم حيدر آباد "الهند"

٧ العلامة فضل حق خير آبادي رسالة الدكتوراه للباحثة قمر النساء مطبوعة من المكتبة القادرية هور سنة ١٩٨٦م.

٨ القول السديد مجلة علمية أدبية بالأردية تصدر شهريا من لاهور باكستان.

٩ مآثر صديقي في ذكر حياة النواب صديق حسن خان لابنه.

١٠ مقامات إرشادية ومناقب عنائتية لمقصود أحمد عمري، مطبوع مطبعة دين محمدي سنة ١٩٥٩م.

١١ نداء الإسلام مجلة علمية أدبية سياسية كانت تصدر من إسلام آباد – باكستان.

١٢ نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر لعبد الحي الحسن من ثمانية أجزاء في تراجم علماء وأدباء شبه القارة، طبعة أولى سنة ١٩٤٧م مطبعة دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد، الهند.